الحلقة 14

«عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني.. أشهر كتب التراث العربي

إعداد: ربيع سكر

الحضارة العربية و الإسلامية هي حضارة كتب ومكتبات كان لها أكبر الأثر في تقدم وازدهار الحضارة الانسانية في العصر الحديث ، ومن المعلوم ان الإسلام يحض على العلم ويعتبره فريضة على كل مسلم، وقد ابتدأ القرآن الكريم نزوله بالآيات "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" وكانت الآية القرآنية "ن والقلم وما يسطرون" وقوله تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" وقوله أيضاً : "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". وقد أحب المسلمون الكتب حباً ملك عليهم مشاعرهم وذكر ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) " لم يبلغ حب الكتب في بلد آخر من العالم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر».

ومن المتفق عليه انه بدأت الحركة العلمية الاسلامية في القرن الأول الهجري، بجمع القرآن الكريم ونسخه، وجمع الحديث الشريف وتدوينه، والترجمة إلى العربية عن اليونانية والفارسية والهندية وغيرها من اللغات، والدراسات الفقهية، والأشعار والأنساب، وتسجيل السيرة النبوية والمغازي، وظهرت المكتبات الخاصة، وتطورت المكتبات ونضجت وازدهرت في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وبلغت ذروتها في القرن الرابع. وشهد القرن الثاني الهجري تطوير أو اختراع الورق الذي نقل الحركة العلمية نقلة مهمة وبعيدة فازدهرت صناعة النشر (الوراقة). وبنيت في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد مكتبة بيت الحكمة التي كانت مركزاً مهماً لترجمة الكتب التي جمعها المسلمون من خزائن الكتب في مختلف أرجاء العالم وكان المأمون يرسل العلماء المتخصصين للبحث عن الكتب وجمعها من مصادرها ، وعرفت أيضاً مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة والمكتبات العلمية والبحثية ومكتبات الخلافة ومكتبات المشافي.

وكان المسجد مركزاً للعلم والدراسة إضافة إلى العبادة وذلك حتى زمن قريب ومازال بعضها كذلك حتى الآن في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي وأماكن تجمع المسلمين، واشتهرت مساجد كثيرة باعتبارها مراكز للعلم والفقه والبحث كالمسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة والمسجد الأقصى في القدس، والمسجد الأموي في دمشق، والجامع الأزهر في القاهرة، ومسجد الزيتونة في تونس، ومسجد قرطبة، وجامع المنصور في بغداد.

لذلك فانه على الرغم من تفوق الحضارة الغربية في الوقت الحالي، إلا أن البدايات كانت عربية في العديد من المجالات، حيث أثرى العلماء العرب والمسلمون العلم في تخصصات مختلفة، بالإضافة إلى الأدب العربي الذي ألهم الكثير من الكتاب الغربيين، ونواحي أخرى متعددة .

وللاسف الشديد اذا سألت أحدهم : من هم العلماء الأكثر تأثيراً في التاريخ ؟ .. تكون الإجابة : اينشتاين ، داروين ، غاليليو، نيوتن .. وغيرهم .. وهي إجابة صحيحة بلاشك ، لما قدمه هؤلاء من علوم واختراعات وأفكار ، كانت هي السبب الرئيسي في تقدم الانسانية ..لكن ، هل فعلا كانوا هم الروّاد الأوائل في تقدم البشرية ، ولم يسبقهم علماء آخرون مهّدوا لهم العلوم والمعارف التي جعلتهم يبتكرون مايبتكرون ؟ بالطبع سبقهم علماء اخرون أبدعوا وألفوا ووضعوا بدايات قواعد ونظريات وأسس العلوم الانسانية والعلمية.

وتقدم «الوسط» خلال شهر رمضان سلسلة من الحلقات بعنوان «كاتب وكتاب» وهي نماذج وأمثلة لمؤلفات عربية تركت علامة في الحضارة الانسانية في الشرق والغرب بطريقة او بأخرى ، فمن المؤكد ان التقدم الهائل الذي وصلت إليه البشرية اليوم ، لم يظهر بين يوم وليلة.. إنما جاء من تراكم هائل للخبرات والمعلومات والرؤى والنظريات والأبحاث ،التي توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل .. وقرناً بعد قرن .. و ارتكزت عليها الحضارة الإنسانية ، وقامت بالبناء عليها والتطوير فيها ،حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن..

وجولتنا اليومية بين أوراق الكتب التراثية والحديثة وما نعرضه منها على حلقات خلال شهر رمضان المبارك ، هي دعوة للاجيال الحالية للبحث والتنقيب في تراث الأجداد من العلماء والأدباء والمفكرين العرب والمسلمين الذين علموا العالم بمؤلفاتهم وحبهم للعلم وأفنوا حياتهم في خدمة الانسانية جمعاء حتى بلغت الحضارة الإسلامية درجة عالية من الرقي بجهود العلماء المسلمين والخلفاء الذين شجعوا هؤلاء العلماء، فازدهرت الحياة العلمية في شتى نواحي المعرفة، وكان لمؤلفات العلماء المسلمين دور كبير في نهضة البشرية وتقدمها التكنولوجي الذي يعيشه العالم الآن ، وفي تلك الحلقات نلقي الضوء حول بعض مؤلفات العلماء العرب والمسلمين العظماء الذين كانوا يعيشون في العصور الوسطى ، فى مساحة جغرافية هائلة ، امتدت من الاندلس غرباً إلى تخوم الصين وروسيا شرقا ...فهل يُمكن ان نعيد انتاجهم بيننا من جديد فى هذا العصر الذي نعيشه الآن لنصنع نهضتنا العربية والإسلامية من جديد ؟

صورة غلاف مخطوط كتاب عجائب المخلوقات

- تركز الموسوعة على المخلوقات في العالم خصوصا (العجائب) وعالم الخرافة من حيوان ونبات وإنسان يفترض وجوده في العالم
- يتناول هذا الكتاب وصف السماء وما فيها من كواكب وأبراج وحركاتها وما ينتج عن ذلك من فصول السنة
- في الكتاب حديث عن ما في أعماق الأرض من طبقات وأبخرة وغازات ومعادن وفلزات ولماذا تتغير طبيعة الأرض كل عدة آلاف من السنوات

يعتبر كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » للقزويني، الذي كتب في القرن 13م، من أشهر الكتب في التراث العربي، وأغناها بالصور، وتركز هذه الموسوعة على المخلوقات في العالم، خصوصا (العجائب)، أو ما هو من عالم الخرافة، من حيوان ونبات وإنسان يفترض وجوده في العالم. وقد انشغل المصورون المسلمون برسم تلك المخلوقات في أعمالهم بين القرنين 13م و19م.

ومن خلال مخطوطات القزويني، يمكننا التعرف على الطريقة التي تصور بها الرسامون في ذلك العصر المخلوقات المألوفة كالقط مثلا، أو تلك الغريبة مثل وحيد القرن. ويعبر النص الذي كتبه القزويني عن الطريقة التي صنف بها المثقف المسلم المخلوقات، أو كيف أخفق أحيانا في تصنيفها، وتشهد الرسوم التوضيحية على تنوع عوالم الخيال عند الفنانين.

نبذة عن الكتاب

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات كتاب من تأليف العالم والجغرافي العربي أبو عبد الله بن زكريا القزويني. يتناول هذا الكتاب وصف السماء وما فيها من كواكب وأبراج وحركاتها وما ينتج عن ذلك من فصول السنة، وتكلم عن الأرض وتضاريسها، والهواء وما فيه من رياح وأنواعها، والماء والبحار، والجزر، وأحيائها وتكلم عن النبات والحيوان التي تسكن اليابس ورتبهم أبجدياً. و يلاحظ القارئ البراعة في العرض، ودقة الملاحظة، والاستنتاج السليم، والكتاب به أربع مقدمات، ثم قسمه إلى مقالات كل مقالة بها عدة فصول. وخالف القزويني من تقدمه من علماء العرب في عدم ذكر الأشعار التي تصف النبات أو الحيوان بكثرة فكانت دراساته علمية بحتة وليست أدبية.

ومن المُرجح أن كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، قد كُتب في العقد السادس من القرن الثالث عشَر، وهو يُعد أشهر كتاب إسلامي يتناول الكوزموغرافيا. تشير النُسَخ المتعددة للمخطوطة أن العمل ظَلّ لقرون من أشهر الكُتُب في العالم الإسلامي. تحتوي هذه المخطوطة على رسومات تخطيطية عديدة للكواكب وأكثر من 400 منمنمة ولوحة. وقد انتهى العمل فيها عام 1280، أي قبل وفاة المؤلف بثلاثة أعوام، وهي تُعد أقدم شاهد نصي معروف على العمل الأصلي.

يتناول الجزء الأول العالم السماوي، بينما يُصَوّر الجزء الثاني العالم الأرضي. ويقوم علم الكوزموغرافيا على مذهب وحدانية الله ووحدة الوجود باعتباره أحد المخلوقات الإلهية. تستحق صُور الملائكة الانتباه بشكل خاص، فهي تبدو خفيفة الحركة ومفعمة بالحيوية على غير العادة. وقد جعل الاستخدام المتميز للألوان في المخطوطة الملائكةَ تبدو كمخلوقات مشرقة شبه شفافة.

قسم كتاب "عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات" إلى مقدمة تحوي تصنيفاً عاماً لجميع الموجودات وفق النمط اليوناني، وعلى الأخص أرسطو، ثم قسمين يعالجان الكلام عن العالمين العلوي والسفلي كل على حدة، ويتناول القسم الأول الذي يبحث في العالم العلوي الكلام عن الأجرام السماوية: الشمس والقمر والنجوم، وسكان هذا العالم أي الملائكة، وكذلك التوقيتات والتقاويم العربية والسريانية وما يرتبط بها من أعياد ومناسبات . أما القسم الثاني فخصصه لذكر الأرض وظواهرها، حيث يرد فيه الكلام عن العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب، ويصف فيه تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، مع بيان أسباب الزلازل وتكوين الجبال ونشأة الانهار والمنابع والعيون، ويلي ذلك عرض لممالك الطبيعة الثلاث: المعدنية والنباتية والحيوانية، وتبدأ المملكة الأخيرة بالحديث عن الإنسان وخصائصه الأخلاقية وتشريحه وتركيبه العضوي ومميزات الشعوب المختلفة وحديث عن المخلوقات الأخرى من الجن والغيلان والعنقاء . . الخ .

وفي الكتاب حس العالم المتطلع إلي المستقبل، فالأرض كروية وليست شكلاً مربعاً أو اسطوانياً أو مسطحاً كما كان سائداً في عصره، تدور حول محورها من الغرب إلى الشرق، والمخلوقات عليها منجذبون إليها بقوة الجذب، وقوة الدوران معاً، وليست ثابتة في مركز الكون كما قال بطليموس، ومعظم اليابس في الأرض يقع في نصفها الشمالي، وأن صورة السماء بنجومها وكواكبها تختلف في النصف الشمالي عن الجنوبي، وأن القمر يدور حول الأرض، وأن هذه الأخيرة مع عدة كواكب أخرى تدور حول الشمس، فتنشأ نتيجة لذلك الفصول الأربعة، وأن الشمس تدور حول نفسها وحول مركز المجرة .

وفي الكتاب كذلك حديث عن ما في اعماق الأرض من طبقات وأبخرة وغازات ومعادن وفلزات . . . ولماذا تتغير طبيعة الأرض كل عدة آلاف من السنوات، هو حديث الجيولوجي، ويحيط بكل ذلك الحكايات الشعبية مع حس ديني قوي يعتمد على محاولة الاجتهاد مع الآيات القرانية الكريمة وأسلوب مترع بالصور والأخيلة الأدبية، وفي الكتاب كذلك روح المؤرخ المهموم الذي يريد تلخيص معارف عصره لحفظها في زمن اتسم باللحظات التاريخية المريرة والتقلبات التي ربما بدت لها مهددة للحضارة العربية الإسلامية نفسها .

نتشر الكتاب بسرعة صاروخية في أرجاء العالم الإسلامي، وذلك قبل سنوات قليلة من دخول المغول البربري إلى بغداد وهجرة القزويني إلى الشام ثم مصر، واستقبله علماء عصره بالقبول وعقدت حلقات قراءة جماعية له، وكان من أوائل الكتب التي طبعت في الغرب في ألمانيا، وطبع في مصر في القرن التاسع عشر على هامش كتاب "حياة الحيوان الكبرى للدميري"، وهناك مخطوطات منه في ميونيخ وواشنطن ودار الكتب الأهلية في باريس، وكتب عنه مؤرخ العلم الشهير جورج سارتون في كتابه "المدخل إلى تاريخ العلوم عند العرب"، وكراتشكوفسكي في "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، وتشارلس لابل في "مبادىء علم الجغرافيا"، وشاخت في "تراث الإسلام"، وايتنهاوزن في "التصوير العربي"، وتناول الكتاب من الباحثين العرب كل من: أحمد عيسى وعبد الحليم منتصر، وتوفيق الطويل ومقبول أحمد . .الخ .

التأثير الأكبر للكتاب نجده لدى القاص والروائي الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس الذي ألف كتابه "المخلوقات الوهمية" ليتناص فيه مع كتاب القزويني . يمتلىء عمل بورخيس باقتباسات من القزويني يضعها بين مزدوجين، كما أن مقدمة بورخيس تبدأ بفقرة مطولة من القزويني، ويبدو بورخيس مفتونا بالقزويني سائرا على دربه، ففي مقدمته الخاصة وبعد أن يحكي عن تأثير حديقة الحيوان في نفس الطفل، ينتقل إلى حديقة حيوان الأساطير تلك التي صاغها وأبدع فيها الكثيرون وفي مقدمتهم القزويني .

إن ولع بورخيس بالذات بالقزويني لا يحسب لتأثير هذا الأخير الممتد إلى القرن العشرين وإلى الأدب اللاتيني بقدر ما يؤشر إلى لقاء كاتبين حلما بمؤلف يضم معارف العالم بأسرها، فصل بينهما ما يقرب من سبعة قرون ووحدتهما الرغبة في لانهائية المعرفة .

نبذة عن الكاتب

أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القزويني، عالم مسلم عربي قزويني المولد حجازي الأصل. يرتفع نسبه إلى الإمام انس بن مالك عالم المدينة. ولد في عام 605 وتوفى عام 682 هجري.

رحل في شبابه إلى دمشق ثم ذهب إلى العراق واستقر بها وتولى القضاء وكان ذلك في خلافة المستعصم العباسي واستمر في منصبه حتى سقطت بغداد في يد المغول، الف الكثير من الكتب في مجالات الجغرافيا والتاريخ الطبيعي وله نظريات في علم الرصد الجوى، كما شغف بالنبات والحيوان والطبيعة والفلك والجيولوجيا.

مدرسته

كان كثير التأمل في خلق الله، موصياً بذلك مسترشدا بالقرآن الذي حثنا على النظر في مصنوعات وبدائع خلقه وليس التحديق والنظر فقط بل التفكير في حكمتها وتصاريفها، ليزداد الإنسان يقيناً، ويقر بإن التأمل أساسهُ خبرة بالعلوم والرياضيات بعد تهذيب الاخلاق والنفس، لتنفتح البصيرة ويري الإنسان العجائب التي لا يستطيع تفسيرها.

مؤلفاته

1 ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: يتناول هذا الكتاب وصف السماء وما فيها من كواكب وأبراج وحركاتها وما ينتج عن ذلك من فصول السنة، وتكلم عن الأرض وتضاريسها، والهواء وما فيه من رياح وأنواعها، والماء والبحار، والجزر ،وأحيائها وتكلم عن النبات والحيوان التي تسكن اليابس ورتبهم أبجدياً. و يلاحظ القارئ البراعة في العرض، ودقة الملاحظة، والأستنتاج السليم، والكتاب به أربع مقدمات، ثم قسمه إلى مقالات كل مقالة بها عدة فصول. وخالف القزوينى من تقدمه من علماء العرب في عدم ذكر الأشعار التي تصف النبات أو الحيوان بكثرة فكانت دراساته علمية بحتة وليست أدبية.

2. آثار البلاد وأخبار العباد.

و هو كتاب في التاريخ به ثلاث مقدمات الأولى عن الحاجة إلى بناء المدن والقرى.

الثانية عن خواص البلاد وتنقسم إلى تأثير البلاد في السكان وتأثير البلاد في النبات والحيوان.

الثالثة عن أقاليم الأرض. و به أخبار الأمم الماضية وتراجم الأولياء والعلماء والسلاطين والأدباء وغيرهم.

3 ـ مفيد العلوم و مبيد الهموم

هو ثالث كتاب للعالم المسلم زكريا بن محمد بن محمود القزوينى فقق، يصف القزوينى هذا الكتاب:﴿عمري من كان له هذا الكتاب لايضيق صدره أبداً، ويعرف به قواعد الشرع، وقانون الممالك، ونصرة المذهب، ورد الخصم، وتذكرة الآخرة، وقاعدة العدل، وعافية الأمور، ونذير العدو، إلى غير ذلك. وأنفقت فيه شطراً من صالح عمري، وسميته:(مفيد العلوم ومبيد الهموم). ورتبته على اثنين وثلاثين كتاباً.

3. خطط مصر.

4. الإرشاد في أخبار قزوين.

المصادر

1 – صفحة كتاب عربي علم العالم على موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك
2 – موقع المعرفة
3 – موقع ويكيبيديا
4 – جريدة الخليج الاماراتية تقرير عن القزويني يوم 11 ابريل 2015

صفحة مقدمة المخطوط

صور لبعض المخلوقات من الكتاب

- تكلم عن الأرض وتضاريسها والهواء وما فيه من رياح وأنواعها والماء والبحار والجزر

صورة وحش يأجوج ومأجوج من كتاب القزويني